محمود أبو هشهش*

الحكواتي فرانسوا أبو سالم: حياة بين انتحارين

إن الحيز القليل الذي احتله جسد فرانسوا أبو سالم النحيل في الهواء ستين عاماً قلقاً كأن الريح تحته، اختفى أخيراً بعد أن انغلقت عليه حفرة سُويت قبراً بأكاليل زهور قليلة.

ذات زيارة له، لمؤسسة عبد المحسن القطان حيث أعمل، تحدث فرانسوا عن أرشيفه المسرحي الذي يثقله في حله وترحاله، والذي كان جمعه على مدى أربعة عقود موثقاً تجربته المسرحية خلال الأعوام التي شهدت تشكّل معالم المسرح الفلسطيني المعاصر. أراد أن يضعه في أيد أمينة. كان ذلك قبل خمسة أعوام ربما. لم يبدُ الأمر طارئاً حينها، وإنما بدا أنه يحتمل الانتظار، لكن هاجسه بشأن مصير ذلك الأرشيف، وهواجس أُخرى تتعلق بأرشيفات كثيرة أُخرى، كانا قد نكآ جرحاً عميقاً في خاصرة التاريخ الفلسطيني الحديث.

هل دهمته فكرة الموت حينها، فأراد أن يطمئن على ثمرة حياته، وعلى موقعه في تاريخ ساهم في صناعته وصوغه، أم إن الأمر كان مجرد هاجس وجودي لشخص تثقله تجربته وذاكرته وتاريخه، وهو الذي اختار هويته بكامل إرادته، فكرس جذوة حياته في فلسطين ولفلسطين، كي يعلّمنا من جديد، مثلماً فعل جوليانو مير خميس، وفيتوريو أريغوني، أن الهوية قرار وخيار، وليست قدراً أو عرقاً؟ لا بد من أنه كان يخشى الموت مثلما نخشاه جميعاً، لكن

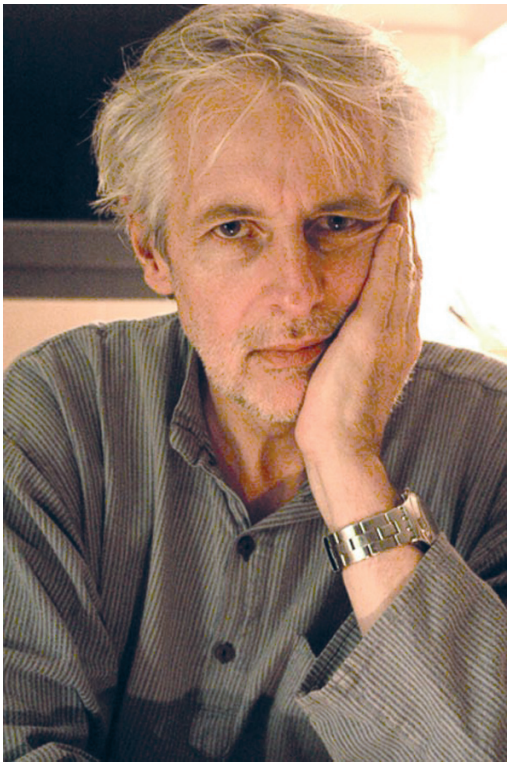

أكثر ما كان يخشاه، مثل المبدعين الحقيقيين، ألاّ يستطيع تجاوز نفسه في كل مرة يقوم بمغامرة مسرحية جديدة من مسرحه التحريضي المشاغب، أو

* كاتب وشاعر فلسطيني يعمل مديراً لبرنامج الثقافة والفنون في مؤسسة عبد المحسن القطان.

أن يكف عن الإيمان بقدرة المسرح على تغيير الإنسان في ظل ما يحيط به من عنف وتكالب لقيم السوق.

أراد فرانسوا بمسرحيته الأخيرة "في ظل الشهيد" (٢٠١١) أن يضع أصبعه على ما كان يعتقد أنه الجرح الأزلي، الدماغ البشري. معرفة كان بذرتها والده الطبيب والشاعر لوران غاسبار، وقد اشتغل عليها فرانسوا مستفيداً من تجربة شخصية وبحثية قضاها في المعهد الطبي البيئي في باريس خلال الفترة ٢٠٠٢ – ٢٠٠٦. وهذا العمل الذي يستند إلى علم النفس العصبي، والذي قدمه فرانسوا نفسه في مونودراما طويلة، يدعو إلى تنمية المناطق الأكثر إبداعاً داخل الدماغ البشري، وإلى قمع تلك المناطق التي تقف وراء النزعات "القطيعية" الحيوانية والعدوانية. كان يحلم بأن يكون هذا المشروع عملاً مسرحياً كبيراً يتضمن الرقص والغناء إلى جانب التمثيل، لكن قصور التمويل المطلوب دفعه إلى أن يجعل مسرحه مسرحية الممثل الواحد، وربما يكون هذا السبب هو نفسه الذي دفعه في الأعوام الأخيرة إلى إنتاج أعمال صغيرة، مونودرامية مثل "ذاكرة للنسيان" (٢٠٠٧)، أو ثنائية مثل "جلجامش" (٢٠٠٦)، و"أبو أوبو في سوق اللحامين" (٢٠٠٩). وقد يكون فرانسوا وجد في هذه الصيغة حلاً لمشكلة التمويل من جهة، ومن جهة أُخرى ضماناً لتجوال هذه الأعمال ووصولها إلى الناس. كما عُرف عنه أنه كان فناناً صعب المراس، شديد العناية بالتفصيلات إلى حد القسوة والصدام مع أفراد طاقمه الفني أحياناً كثيرة، فقد كان المسرح جوهر وجوده وحياته، ووطنه ومنفاه.

إلاّ إن ذلك لم يمنعه من بدء التحضير لإنتاج عمل ضخم كان انتهى من كتابته وإعداده، وشرع في عملية البحث عن التمويل وتشكيل الفريق الفني. إنها مسرحية، أو تجربة سينمائية في المسرح، كما وصفها مرة، وتحمل عنوان "الزائر". وهذه المسرحية التي لم تُنجَز تسجل تجربة يعتبرها فرانسوا تاريخية في مسيرته الشخصية والفنية، فهو كان يعتقد أنها إن تحققت، كما يتخيلها، ستحدث تحولاً

في تاريخه الفني، وربما تاريخ المسرح الفلسطيني. لقد أراد أن يوثق في هذا العمل تجربة حقيقية له ولمجموعة من الشباب في تصوير فيلم روائي طويل عن فترة الانتداب البريطاني، في قرية بيت عور الفوقا قضاء رام الله في أواسط السبعينيات، لكن تلك التجربة لم تكتمل بسبب وشاية مختار القرية بأولئك الشباب لسلطات الاحتلال، لعدم حصولهم على تصريح بالتصوير.

وساعدته في كتابة هذا العمل صديقته الأخيرة الألمانية باولا فانفيك، مثلما شاركته في إخراج مسرحيته الأخيرة "في ظل الشهيد". وكان تعاون معها أيضاً في إخراج عمل "السلطانة بائعة السمك" (٢٠٠٩)، وهي أوبرا للأطفال من تأليفها وإنتاج مؤسسة سعيد بارنبويم. لكن باولا في حديثها الأخير معه عبر سُكايب، لم تستطع ثنيه عن الموت، إذ قال لها: سأنتحر، وخرج كي ينتقي بهدوء البناية

التي ألقى من فوق سطحها نفسه، ولم يعبأ بصراخ شريكته، عبر سْكايب والبحار، وهي تناشده ألاّ يفعل. وكانت تلك العمارة في قيد الإنشاء على بعد خمس بنايات، أو ثلاث دقائق مشياً بخطى فرانسوا المتأنية، عن البناية التي سكن طبقتها الثانية في منطقة الطيرة، أحد الأحياء الراقية والجديدة في مدينة رام اللـه، والتي انتقل إلى السكن فيها قبل نحو عامين. كان ذلك مساء السبت الأول من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١. لم يجده أصدقاؤه الذين كانوا خرجوا للبحث عنه، وإنما عثر عليه سائق جرافة كان ينقل الطمم من جانب تلك البناية، وقد تفاجأ بجسد فرانسوا عالقاً في كومة طمم كان يهم بنقلها.

فرانسوا الذي شهد ثورة الطلاب في فرنسا في سنة ١٩٦٨ حيث بدأ مسيرته العملية مع "مسرح الشمس" في باريس، بعد أن كان درس التمثيل في مدينة ستراسبورغ، عاد إلى القدس في سنة ١٩٧٠ كي يعمل على فيلم. وكانت سلطات الاحتلال الإسرائيلي أبعدت والده الطبيب المحبوب لوران غاسبار، وهو أرمني مجري كان قدم إلى فلسطين في بداية الخمسينيات كي يستقر في القدس مع زوجته الفرنسية الفنانة النحاته فرانسين غاسبار وأطفالهما الثلاثة بمَن فيهم ابنهم الأوسط فرانسوا، وذلك بعد أن أخذت دولة الاحتلال تنزعج من وجوده، ولا سيما بعد تأليفه كتابه الثاني "فلسطين العام صفر"، الذي عقب كتابه "تاريخ فلسطين"، الذي يتناول فيه بزوغ حركات المقاومة في الستينيات، كما عُرف عنه أنه كان يعالج الفدائيين الفلسطينيين في أعقاب سنة ١٩٦٧.

وكانت البداية في ضيافة الرهبان في حجرة في كنيسة الدومينيكان في القدس، حيث بدأ فرانسوا يعمل على نص مسرحيته الأولى "قطعة حياة" مع إميل عشرواي، ثم انضم إليهما عدد من الشباب المتحمس للعمل والتغيير، وذلك في مرحلة شهدت مدّاً للحركات الاجتماعية التقدمية والتحررية في العالم. وقدمت هذه المسرحية أول عروضها في المدرسة العمرية في البلدة القديمة في القدس في بداية سنة ١٩٧٢، الأمر الذي شكّل انطلاقة "فرقة بلالين" التي ضمت إلى جانب فرانسوا كلاً من: إميل وإبراهيم عشراوي؛ سامح عبوشي؛ نادية ميخائيل؛ عادل الترتير؛ فيرا تماري؛ سهير عبد الهادي؛ ميلان كيدان؛ ماجد الماني. وفي السنة نفسها، تلت تلك التجربة مسرحية "العتمة" التي حملت بذور مسرح فرانسوا المستند إلى الارتجال والعمل الجماعي الملتصق بالسياقين الاجتماعي والسياسي. فهذه المسرحية تبدأ بفرانسوا على خشبة المسرح وهو يهمّ بالانتحار بعد أن ضاق ذرعاً بإحباطاته، فينقطع التيار الكهربائي، ويأخذ الممثلون الآخرون المنتشرون بين الجمهور بالتناسل وإبداء آرائهم بشأن أسباب ذلك الانقطاع، والتدخل لإصلاح الأمر من أجل استئناف المسرحية. وشكّلت هذه التجربة علامة فارقة في تاريخ الفرقة الفني، إذ إنها حازت شهرة كبيرة، واستحوذت على اهتمام صحافي كبير طال صحفاً عالمية كبرى مثل "لوموند"، و"واشنطن بوست"، إلى جانب العديد من الصحف العربية والمحلية، الأمر الذي ساهم في تزايد شعبية الفرقة بشكل قياسي، وفي انضمام العديد إليها. وكانت مسرحية "نشرة أحوال الجو" (١٩٧٣) آخر عهد فرانسوا بفرقة "بلالين"، التي تركها لخلافات وتجاذبات داخلها على الرؤى، كي يشكّل مع مايكل مسيس وعلي حجاوي ومصطفى الكرد فرقة جديدة حملت اسم "بِلا ـ لين" (بكسر الباء) (١٩٧٣)، بينما استمرت "بلالين" بمشوارها الذي وصل إلى نهايته في سنة ١٩٧٥.

وكانت "مصارعة حرة" أول أعمال "بِلا ـ لين"، ودارت حول فكرة الحصول على دولة فلسطينية على جزء صغير من فلسطين. وجابت هذه المسرحية المتقشفة العديد من الأماكن، إذ لم تكن تحتاج إلاّ إلى عراء يتصارع الممثلون فيه، لكن هذه التجربة سرعان ما وصلت إلى نهايتها، فوجد فرانسوا نفسه جزءاً من تجربة جديدة مع عادل الترتير ومصطفى الكرد وأنيس البرغوثي، وقد حملت اسم "صندوق العجب" (١٩٧٥). وقدمت الفرقة مسرحية "لما انجنّينا" (١٩٧٦) قبل أن ينفصل عنها فرانسوا من جديد، في حين واصلت الفرقة مسيرتها مقدمةً كثيراً

من الأعمال المسرحية في الثمانينيات والتسعينيات، ولا يزال الفنان عادل الترتير يمسك بخيط تلك التجربة وحده من مقره "صندوق العجب" في البلدة القديمة في رام الله. أمّا فرنسوا فانطلق آنذاك لتأسيس التجربة الأهم في حياته، وهي فرقة الحكواتي (١٩٧٧)، التي تشكلت من مجموعة من الشباب الذين كانوا، في معظمهم، طلاباً في الجامعة العبرية في القدس، وهم: إبراهيم خلايلة؛ عدنان طرابشة؛ طلال حماد؛ محمد عيد؛ محمد محاميد؛ إدوار معلم (الذي أسس لاحقاً مع إيمان عون مسرح عشتار في القدس في سنة ١٩٩١، وفي رام الله في سنة ١٩٩٥)؛ جاكي لوبيك (زوجة فرانسوا لاحقاً ومطلقته فيما بعد).

وكانت مسرحية "باسم الأب والأم والابن" (١٩٧٩) باكورة أعمال فرقة الحكواتي، وقد جابت فلسطين، ولأول مرة في تاريخ المسرح الفلسطيني، أنحاء كثيرة من أوروبا. وتلت تلك المسرحية مسرحيةُ "محجوب محجوب" التي تناولت فكرة آخر خمسة فلسطينيين بقوا على الأرض، ثم مسرحية "جليلي يا علي" التي تناولت موضوع فلسطينيي ٤٨ والقرى المدمرة، ومسرحية "قصة العين والسن" التي تدور حول أخوين توأمين ينفصلان وقت الولادة، ثم يلتقيان في معركة، ومسرحية "ألف ليلة وليلة في سوق اللحامين" (١٩٨٢)، الأمر الذي شكّل رصيداً مهماً، ونجاحاً منقطع النظير للفرقة التي جابت بتلك الأعمال جميع أنحاء فلسطين، وعرضتها على أشهر المسارح الأوروبية والأميركية.

أراد فرانسوا ورفاقه المؤسسون، وبالتعاون مع رفاق جدد انضموا إليهم، وكان من أبرزهم راضي شحادة (الذي سيؤسس لاحقاً مسرح السيرة الجوال) وعامر خليل (الذي سيؤسس مع جاكي لوبيك ويان ويليامز مؤسسة أيام المسرح) وإيمان عون، أن يجدوا بيتاً لفرقتهم الرحالة. فقامت الفرقة في سنة ١٩٨٣ باستئجار مبنى سينما النزهة المهجور والمدمر، وقررت تحويل ذلك الخراب إلى مسرح، فتحول أعضاؤها إلى عمّال وبنّائين في عملية مضنية بدت للكثيرين مستحيلة. واستطاع فرانسوا، بقوة شغفه وإيمانه بما يفعل، أن يجنِّد كثيرين من المثقفين والتجار والحرفيين للتطوع معه ومساعدته، فتمكن مع رفاقه من افتتاح ما أطلقوا عليه مسرح النزهة (الحكواتي)، والذي بات اليوم يُعرف بالمسرح الوطني الفلسطيني ـ الحكواتي.

وواصلت الفرقة، منطلقة من مقرها الجديد في القدس، تقديم أعمال جديدة كان من أبرزها مسرحية "كفر شما" (١٩٨٦) التي قُدّم أكثر من مئة عرض لها في فلسطين والخارج، كما شهدت هذه الفترة إعداداً لأعمال من الأدب العالمي مثل "الاستثناء والقاعدة" لبرتولت بريخت، و"ميستيرو بوفو" لداريو فو، و"اليوبيل" لتشيخوف.

وفرضت مأسسة الفرقة تحديات جديدة قادتها إلى التصادم مع الجسم الإداري للمسرح الفني، فانتهى الأمر في سنة ١٩٨٩ إلى تأزم علاقة الفرقة بمجلس إدارة المسرح، وإلى انفصال الفرقة عن المسرح الذي أقامته بنفسها. وفي سنة ١٩٩٠ أخذ فرانسوا يشتغل على أعمال تتناول فكرة التفاعل/الصدام بين أوروبا والعالم العربي، وتمثلت أولى تجاربه في مسرحية "في البحث عن عمر الخيام مروراً بالحروب الصليبية" (١٩٩١)، التي كانت إنتاجاً مشتركاً: فلسطينياً وفرنسياً وسويسرياً، بطاقم ممثلين مشترك أيضاً. وتلت هذه التجربة إعداده وإخراجه مسرحية "منطق الطير" مع المسرح الملكي الفلامنكي ببروكسل (١٩٩٣)، ومسرحية "أريحا تحت الصفر" (١٩٩٤) التي أنجزها في أعقاب اتفاق أوسلو. وفي سنة ١٩٩٥ استقر في فرنسا، وشرع يعمل على إنتاجاته الخاصة التي كان منها مسرحية "سانت جونيه وراء الكواليس" و"موتيل"، كما أنجز في تلك الفترة مشاريع فنية تمثلت في إخراجه أعمال أوبرالية مهمة مثل "اختطاف في السرايا" لموتزارت في مهرجان سالزبورغ ١٩٩٧/١٩٩٨، و"كارمن" لبيزيه، و"روميو وجولييت" لجونو، فضلاً عن فيلم وثائقي عن القدس بعنوان "القدس، أبواب المدينة"، أنجزه في سنة ١٩٩٥ لمصلحة معهد سميثسونيان بواشنطن.

وفي سنة ٢٠٠٢، عاد فرانسوا من جديد إلى تنفيذ مشاريع في فلسطين مثل "شمس وشركاه"، ومسرحية "لا لم يمت" لحسين البرغوثي، كما أخرج في سنة ٢٠٠٦ نسخة جديدة، ثالثة ومقننه وناجحة من مسرحية "ملحمة جلجامش" مع الفنان عامر خليل، بعد أن كان سبق أن أعدها وأخرجها في فرنسا في سنة ٢٠٠٣، وذلك بإنتاج كبير حمل عنوان "أوبرا من بلاد ما بين النهرين"، ووضع موسيقاها الفنان قدسي أرغونير، لكن هذا العمل لم يلاقِ نجاحاً، الأمر الذي شكل انتكاسة قوية لفرانسوا الذي كان يحاول تعزيز حضوره الفني بقوة في أوروبا على غرار ما فعل في فلسطين.

وعلى الرغم من إجماع المقربين منه على أنه كان يعاني مؤخراً موجة اكتئاب قوية تمكنت منه كثيراً، وكان عاد من أوروبا بعد غياب ثلاثة أشهر، فإن أحداً لا يستطيع أن يؤكد تماماً ما هو دافع الانتحار الأساسي. وقد التف الأصدقاء حول جسده المسجى في مسرح عشتار في رام الله كي يلقوا عليه النظرة الأخيرة والكلمات الأخيرة، كما أن عائلته الصغيرة انكمشت بالقرب من النعش محدّقة بصمت إلى ذلك التابوت الملفوف بالعلم الفلسطيني، وكان أفرادها هم: والدته العجوز فرانسين غاسبار التي كانت رافقته في العديد من أعماله المسرحية كمصممة سينوغرافيا، وأخته وأخوه، وزوجته الثانية السويسرية سيلفيا وابنهما جميل، وصديقته باولا فانفيك، ومطلقته الأولى جاكي لوبيك، وأرملته الإسرائيلية التي كان تزوجها قبل عامين ليحصل على أوراق رسمية تمكّنه من العودة والإقامة مجدداً في فلسطين.

لقد رثاه أصدقاؤه ورفاق دربه، وكان الفنان عامر خليل أول من رثاه بمقطع من ملحمة جلجامش التي قدماها معاً:

ليبكِ عليك الذئب والضبع والنمر والأسد والثور والغزال والوعل والشعراء الذين مدحوك... أندبوه، حلّوا شعوركم من أجله، إنني أبكي صديقي أنكيدو بحرقة النساء النادبات.

ورثاه البقية بكلمات ملموسة أكثر، وخطر لي، وقد تكاثر النشيج في القاعة، أن الأمر يصلح لأن يكون مسرحية قوامها مونولوجات تغص بشعور معقد بالخسارة والذنب.

وفي القدس، كان الأمر مشابهاً، وربما أكثر إيلاماً، فقد سُجي تابوته الملفوف بالعلم الفلسطيني على خشبة المسرح الوطني الفلسطيني، الحكواتي، بيته الأول، وحلمه الأكبر الذي خذله. وقد أطلق المجتمعون هناك مجموعة من البالونات في الهواء أحضرتها معها المحامية الإسرائيلية اليسارية ليئا تسيمل استحضاراً لمغامرته المسرحية الأولى، قبل أن يُحمل جسده إلى كنيسة الدومينيكان، حيث كتب نصه الأول "قطعة حياة"، ثم وُوري الثرى في مقبرة اللاتين في أحد جبال القدس المطلة على البلدة القديمة، كي يظل مقدسياً وإلى الأبد، كما أحب دائماً أن يكون.

إن قلة قليلة جداً كانت، حتى لحظة نهاية فرانسوا التراجيدية، تعرف أن لا دم فلسطينياً يجري في عروق ذلك الفلسطيني الكبير، وهذه الحقيقة تجعل ألم وداعه أشد، وخسارة فقده أفدح. ولم يخفف كثيراً من الأمر تذكّر حصوله على جائزة فلسطين في سنة ١٩٩٨.

أنا فرانسوا.. لا أريد الرد على ما تردده النفوس الضعيفة عن اللاأخلاقية والابتذال والرياء في مشروعنا... إن أبواب فرنسا مفتوحة على مصراعيها لاستقبالي في كل وقت، لكني شربت ماء هذه الأرض وترعرعت فيها، وبقيت هنا حيث تعيشون، وشاركتكم آمالكم وطموحاتكم، خاصة حق فلسطين التي هي فلسطيني، ومعنى حياتي، وحصاري ومعركتي، وصرختي في الحرب... هذا المشروع يصنعه بشر يفهمون أن التعاون أقوى من كل البطولات الفردية... لا تخلطوا الأمور.. لا تخلطوا بيني وبين الأجانب الذين يحتلون بلادكم (من مسرحية الزائر) ■